الجزائر العدو الجديد لا سعود

يكفي أن يقرأ المرء، أمس، تعليقات اثنين من كبار الكتاب السعوديين هما خالد الدخيل (الحياة) وعبد الرحمن الراشد (الشرق الأوسط)، ليفهم أن زيارة الرئيس باراك أوباما الى الرياض، زادت النقمة السعودية على سيد البيت الأبيض، وضاعفت القلق السعودي من سياسته الداعية الى المصالحة مع إيران والشاجبة لامتهان حقوق الإنسان. الدخيل تخطى في عنوان مقاله كل التوقعات كاتباً: «سياسة أوباما لا تقل خطورة عن داعش». الراشد من جهته أكد ان الوضع لم يتحسن كثيراً في العلاقة السعودية الخليجية مع واشنطن في كل القضايا المرتبطة بإيران أي سوريا والعراق واليمن، معتبراً ان أوباما «ليس متحمساً لاتخاذ مواقف جديدة ربما لأنه لم يعد يرى أسباباً قوية للتحالف مع مجموعة الخليج ولم يعد يعتبر ان هناك دولاً صديقة مقربة لبلاده أكثر من غيرها في المنطقة».

لا داعي للتذكير بالاستقبال الضعيف لأوباما على أرض المطار وغياب الملك سلمان عنه، ولا بسيل الانتقادات المباشرة او المضمرة التي سيقت ضده في الإعلام السعودي، ولا بتجاهل التلفزيون الرسمي نقل وقائع وصوله الى القمة الخليجية.. الأكيد أن الهوة بين الرئيس الأميركي والعرش الحالي ما عادت قابلة للتضييق قبيل رحيله عن البيت الأبيض.

لماذا قلقت السعودية؟

دعونا نترك الكلام المكرّر والذي أثبت عدم جدواه حول ضرورة رحيل الأسد (الذي تأكد أنه باق على الأقل الى ما بعد رحيل أوباما). ولنترك الكلام أيضاً حول مساندة أميركا للخليج لو «انتهكت إيران الاتفاقات». هذه «لازمات» ديبلوماسية تشبه الى حدّ بعيد اللازمات الموسيقية التي لا يؤثر وجودها أو غيابها على جوهر الأغنية او المغني وإنما يجمّله فقط. الأهم في ما قاله أوباما: أن «إيران مهمّة لنا في مكافحة داعش» و «يجب تخفيض درجة التوتر في المنطقة لكي يتسنى للقوى المعتدلة في إيران التفاوض معنا ومع دول الجوار». بمعنى آخر أن لا حل للسعودية ودول الخليج سوى بالمصالحة مع طهران وأن التيار الإصلاحي الإيراني سيتعزّز لو حصل الانفتاح. وحين تحدّث الزائر الأميركي عن العراق، فإنما ليصف رئيس الوزراء حيدر العبادي بـ «الشريك الجيد لنا» مقلّلا من أهمية النزاع السني ـ الشيعي في الحكومة. هذه رسالة للخليج ولكن أيضاً لمن يدعم في الخليج التيار الصدري ضد العبادي (لذلك سننتظر تصعيداً من مقتدى الصدر قريباً ربما). ثم زاد أوباما الطين بلة بقوله: «إن الرفاهية في المنطقة تتوقف على احترام الدول لشعوبها والحيلولة دون نشوب المذهبية».

لو ذهب وزير الخارجية الإيراني محمد جواد ظريف الى السعودية، لما قال أكثر وأهم من هذا الكلام.

لا يتوقّف الأمر على هذا.. اليكم التالي:

ـ أوباما كان قد تعمّد فرش الشوك بدل السجاد الأحمر قبل زيارته الى الرياض. شكّك في كلامه لمجلة اتلانتيك: «بالدور الذي يقوم به حلفاء أميركا من السنّة العرب في الإرهاب المعادي لأميركا» وانزعج من كون «العقيدة السياسية الخارجية لأميركا تجبرني على معاملة السعودية كحليف».

ـ قبل وصول أوباما الى الرياض دار جدل تشريعي كبير في أميركا على خلفية تقدم أعضاء في الحزبين الجمهوري والديمقراطي بمشروع قانون يرفع السرية عن ملفات الهجمات الإرهابية على أميركا عام 2001 بغية مقاضاة مسؤولين سعوديين بتهمة تمويل القاعدة واسامة بن لادن. صحيح أن أوباما رفض القرار، وان السعودية هدّدت ببيع أصولها في الخزينة الأميركية (نحو 750 مليار دولار، أي أكثر من ميزانية وزارة الدفاع الأميركية كلها)، لكن الصحيح أيضاً أن هذا الباب فُتح ومن غير المعروف كيف يمكن إغلاقه. هذا مثلاً الكاتب الأميركي سايمون هندرسن يكتب قبل أيام في «فورين بوليسي» أنه اكتشف: «من المسؤولين الاميركيين والبريطانيين اسماء الأميرين السعوديين اللذين كانا يدفعان مبالغ كبيرة الى بن لادن من صندوق الدولة

بغية إثارة الاضطراب في مختلف الأماكن بعيداً عن المملكة».

ـ في مطلع العام الحالي، دارت مساءلة في الكونغرس الأميركي حول العلاقة بين العرش السعودي والوهابية والإرهاب، وتساءل أحد أعضاء الكونغرس: «أليس من الحقيقة المسلّم بها أن أكبر حركتين جهاديتين عالميتين، أي داعش والقاعدة، تعتبران الوهابية مصدر إلهام لهما».

ـ قبل فترة تعرّض طلاب سعوديون في ولاية إيداهو الأميركية للإهانة والشتم ووجدوا على زجاج سياراتهم عبارات تقول: «عُد الى بلدك. لماذا أنت هنا». وأكد المحلق الثقافي السعودي في واشنطن د. محمد العيسى أنه بدأ تسهيل نقل الطلاب الى جامعات أميركية أخرى.

ـ منذ أيام كشف رئيس الوزراء القطري الشيخ حمد بن جاسم آل ثاني معلومات خطيرة عن السعودية وسوريا وقطر. حين يتحدّث هذا الرجل فإنما يكون لكلامه مغازٍ كثيرة حيال الجار الكبير. وقد لا تكون الرسائل قطرية فقط.

إذ يشاهد المرء هذا الغيض من فيض التحوّلات، يحق له أن يتساءل كما فعل الدخيل والراشد في مقاليهما وفي صحف سعودية أخرى: هل انتهى شهر العسل بين أميركا والسعودية، أم أن الأمر يقتصر فقط على أوباما والسعودية؟ فالكاتب الأميركي هندرسن يؤكد ان في الأمر مناخاً عاماً وليس أمراً معزولاً بات يفرّخ في الإدارات الأميركية ضد السعودية. لعل هذا ما دفع رئيس الاستخبارات السعودي السابق الأمير تركي الفيصل الى القول: «إن الأيام الخوالي مع واشنطن قد انتهت». وهو يعرف تماماً ماذا يعنيه بكلامه لأنه كان سفيراً لبلاده في أميركا. ولعله على حق حين يقول «إن واشنطن تغيّرت بقدر ما تغيّرنا».

لكن ما هو المطلوب أميركياً من الحليف السعودي، تغيير نظام ام تحسين سلوك؟ تغيير العرش أم إبعاد الأمير محمد بن سلمان عنه لصالح الأمير محمد بن نايف؟ تستحق هذه الأسئلة الكثير من المتابعة فيما بقي من ولاية أوباما. تشعر السعودية بخديعة الحليف. فتش عن السبب.

ماذا عن الجزائر؟

حصل شيء مهم وخطير في الأسبوع الماضي في الرياض. ففي ختام القمة الخليجية مع العاهل المغربي الملك محمد السادس، رفعت السعودية سقف خصومتها مع الجزائر الى أقصاها. جاء في البيان الختامي المشترك للقمة الخليجية المغربية أن قادة هذه الدول «يدعمون مغربية الصحراء، ويساندون مبادرة الحكم الذاتي التي تقدّم بها المغرب، كأساس لأي حل لهذا النزاع الإقليمي المفتعل».

هذا الموقف الخليجي، يعني انحيازاً كلياً للمملكة المغربية ضد الجزائر في أعقد قضية بين الرباط والجزائر، أي مصير الصحراء الغربية. هذا المصير لا يزال محور نزاع بين

البلدين وملفاً معقداً جداً في الأمم المتحدة.

ماذا تعيب السعودية على الجزائر؟

ـ تحفّظت الجزائر مراراً على الموقفين السعودي والقطري ضد سوريا. حصل أكثر من اشتباك بين وزراء خارجية هذه الدول قبيل وخلال طرد سوريا من جامعة الدول العربية. (راجع كتاب الأسد بين الرحيل والتدمير الممنهج).

ـ رفضت دعم التحالف العربي بقيادة السعودية في اليمن. وقبل ذلك لم تنخرط في أي تحالف عربي أو إسلامي بقيادة الرياض لضرب الإرهاب. عللت الجزائر ذلك بقوانين البلاد التي تمنع الجيش الجزائري من الانخراط في حروب خارجية.

ـ تحفظت الجزائر على تصنيف «حزب ا» بالإرهابي من قبل مجلس التعاون الخليجي ومجلس وزراء الداخلية العرب وجامعة الدول العربية.

ـ لم تمضِ ساعات على قرارت القمة الخليجية المغربية بدعم موقف الرباط بشأن الصحراء، حتى أرسلت الجزائر الى دمشق وفداً وزارياً برئاسة وزير الشؤون المغاربية والاتحاد الأفريقي وجامعة الدول العربية عبد القادر مساهل. قالت وزارة الخارجية الجزائرية إن «الزيارة ستشهد انعقاد الدورة الثانية للجنة المتابعة، التي سيترأسها الوزير مساهل ووزير الاقتصاد والتجارة الخارجية السوري همام الجزائري، لبحث مختلف جوانب التعاون بين البلدين، وسبل ترقيتها وتوسيع مجالاتها». هذا تصريح لافت حول أول تعاون علني ورسمي بين دولة عربية وسوريا منذ بداية الحرب (باستثناء العراق)، ولافت أيضاً لأن هذه اللجنة لم تجتمع منذ عام 2009 حين انعقدت في الجزائر (أي قبل عامين من الحرب السورية)... ولافت ثالثاً لأن الوزير الجزائري هو المسؤول عن الشؤون المغاربية وجامعة الدول العربية. لا داعي للتفتيش عن السبب، فهو واضح، وردّ مباشر على القمة الخليجية المغاربية. أيضاً كان سبق هذه اللقاءات الجزائرية ـ السورية زيارة وفد من المستثمرين السعوديين إلى الصحراء الغربية، ما أثار حفيظة الجزائر وشكوكها ووسّع شقة الخلاف مع الرياض.

هذه إذاً رسالة جزائرية أولى الى السعودية، وربما لولا وهن صحة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، والقلق من موجات إرهاب تضرب الجزائر في خلال الإعداد لخليفته، لكانت الجزائر رفعت مستوى التحدي الى أبعد من ذلك. فالصحراء بالنسبة لها قضية استراتيجية أولى وقضية أمن قومي تماماً كما هي بالنسبة للمملكة الجارة.

تبقى ملاحظة عربية مهمة: أنه فيما الحريق العربي مستمر، وفيما تنذر تعقيدات المفاوضات السورية باستئناف المعارك بوطيس أشرس، وفيما يترنّح العراق واليمن وليبيا بين التفاوض الهش والتصعيد القابع منتظراً عند أي مفترق، فإن رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين

نتنياهو المتخاصم مع أوباما والمتقارب جداً مع فلاديمير بوتين، يذهب بوقاحة لافتة مع وزرائه الى الجولان ليعلنها «إسرائيلية الى الأبد». بقيت المواقف العربية أقل من خجولة وأكثر من مخجلة ومريبة.

لا شك في أن كل هذا المشهد يستحق التأمل، وربما يستحق التفكير في أنه حان الوقت للقفز فوق الفتن والحرائق وفوق هذا المسمّى سُخفاً بالصراع السني الشيعي، وإيجاد بعض القواسم المشتركة، لأن الجميع يربح إلا العرب من المحيط الى الخليج.